بين التاريخ والادب

الحضارة العباسية واثرها في لغة العرب

الحضارة في الاصل سكنى الحضر كما ان البداوة سكنى البادية ، والغرض منها هنا حالة الأمة الاجتماعية ورقيها واخذها من المدنية بنصيب .

مقدمة

امتد الفتح العربي منذ عهد الخلفاء الراشدين ومكن الله للعرب في الارض ما لم يمكن لغيرهم ، وسطعت شموسها في البلاد التي شاء الله ان تشرق فيها . ولكن القوم شغلهم اذ ذاك ما هم فيه عن الانغماس في ذلك الترف والنعيم والاغتيال في تلك المدنية والحضارة ولم يجنوا لانفسهم فيها الا ما لا يعوقهم عن نشر دعوتهم وجهاد من يصدهم عن سبيلها . فقد كان القوم يبتغون فيما آتاهم الله الدار الآخرة ولا ينسون نصيبهم من الدنيا .

ثم اقتفى آثارهم في ذلك بنو أمية وهم السادة الغُر من بني عبد شمس ، فما كاد عصرهم ينقضي حتى كانت العرب قد فتحت اكثر المعروف من الدنيا القديمة فامتد ملكهم من الهند والصين شرقاً الى جبال البرانس فنهر الرون غرباً ، وانبسط سلطانهم على تلك الشعوب ، لا رغبة في الاستعمار والاستعباد ولكن حباً في نشر دين يعتقدون حقيقته وتعلقاً بمباديء الاسلام التي رفعت لاروبا الحديثة مجدها الخلقي ، وتغلبت لغتهم على ما كان لهم من السنة لانها اللغة الراقية للأمة الغالبة العادلة فعُني بها اهل تلك البلاد تقرباً من الفاتح واستدراراً لاخلاف الرزق وتفقهاً في الدين والتماساً لطلب العلم والأدب .

وكان دأب بني أمية في ذلك الحرص على أخلاقهم العربية وعاداتهم القومية — شأن الفاتح الظافر — فكانوا شديدي التمسك بلغة العرب وآدابها وجعلوا حاضرتهم مدينة دمشق على حدود البادية العربية وكان ولاتها وجنودها وقوادها وكتابها وسائر عمالها من العرب الا من مست الحاجة اليه لميزة فيه ينبغي الانتفاع بها ، فلم تؤثر الحضارة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الاجنبية ايام خلافتهم في اللغة العربية وآدابها الا ما اقتضاه الملك وسعة العمران وما التأم مع الاخلاق العربية وافتضته مرافق حياتهم المتصلة بالحضارة اتصالاً لا يضيع معه الطابع العربي ، فظلت الدولة وبلادها ولغتها وآدابها عربي الصبغة في كل شيء .

وما كاد القرن الاول ينتهي حتى كانت الليالي من الزمان مثقلات بما كانت الامة العربية في استعداد له وتأهب لقبوله من تغير الحال ومجاراة الزمان ، فكانت امارات ذلك تبدو شيئاً فشيئاً حتى اذا أقبل العقد الرابع من القرن الثاني كشفت الايام عن انقضاء عصر بني أمية وتغلب بني العباس فكان ذلك مبدأ حياة جديدة للغة العربية وفنونها ، وهذا ما نريد الكلام فيه .

قيام الدولة العباسية

قامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية وبزغ هلالهم في سماء المملكة العربية على حين كانت ألويتهم خفاقة على كثير من البلاد والشعوب وملكهم واسع الرقعة مبسوط الارجاء ، تجبى اليهم ثمرات كل شيء فكانوا أولي قوة وأولي بأس شديد تهابهم الأمم وتخطب ودهم الممالك . والعرب مبثوثون في الارض ولغتهم معهم فورثوا نعيماً وملكاً كبيراً ، وقد استراحوا من الفتح فجنوا شهد الراحة آمنين وتمتعوا بثمرات الفتح وادعين .

الاحوال المعاشية وابهة الدولة والترف

ولم يفرط سلف العباسيين زمن البذر فقرت أعينهم حين الجنى وآن لهم ان يقطفوا هذه الثمار اليانعة الدانية القطاف ، وان يرفلوا في حلل هذه النعمة الضافية الذيول السابغة الاعطاف فجنحوا الى الدعة وأطلقوا لانفسهم العنان في التمتع بما حل لهم من زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، وجاروا الامم التي اختلطوا بها وظهروا أمامهم مظهراً يليق بهم ويقتضيه زمانهم ولا سيما الفرس عضد الدولة العباسية ونصيرها ومن لهم الدالة عليها وهم أمة قديمة الحضارة راسخة القدم في المدنية فانتقلت العرب من المعيشة البدوية الى الحياة الحضرية وكانت على أتمها في قطر العراق موطن المجد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العربي ، ولا سيما بعد ان بنى المنصور مدينة بغداد وجعلها حاضرة ملكه فكانت صلة بين العرب والفرس ومعبراً بين البداوة والحضـارة ، وان الانسان ليكبر بلوغ النعيم من أعلها بما كان من توفر ارباب الغايات عندهم والعارفين بالفنون التي لا تقتصر الحاجة منها على ضرورة العمران وانما تتوسع المنفعة منهـا الى مطالب الترف الذي يقع في الامم عند استحالال ملكهم فصارت بغداد بيضة الملك ومعدن الطرائف وزينة العالم بما كان لاهلها من اتساع الحضارة وما كان يرى في مبانيها من الاشراق الذي تنزه ان يكون له مثيل في الحسن المشرق والجمال المونق فتبسط اهلها في النعيم واسترسلوا في الرخاء وبنوا القصور المشيدة مدّ البصر وجلاء النظر ، وان شئت ان احدثك عن تلك القصور فدونك شعرهم تراها موصوفة فيه بلفظ دقيق ومعنى رشيق يجعلها تحت بصرك وقد كنفتها الحدائق الغناء والرياض الفيحاء تجوس المياه خلالها وتجري حولها مدبرة في الاحواض وتسرح في اكنافها الطيور الداجنة وانواع الحيوان الآلفة من جميل الريش ورخيم الصوت ، هذه نعيم اسبغتها الحضارة عليهم ظهرت جلية في شعرهم وغنائهم وفنونهم الجميلة .

وكذلك قد تنعموا بما لذّ وطاب من انواع المطاعم ورَفَلوا في البديع من حلل الملابس فلبسوا الخز والديباج واستبدلوا بالعباءة الغلائلَ والمطارف ، وبالمضارب التي فرشها الرمال فاعات فرشها البسط والطنافس وعلى جدرانها الستائر من الحرير بمسامير الفضة على طراز الذهب . وباروا من عاشروهم من الفرس في وسائل اللهو المباح وجاروا سنة الارتقاء قاصدين القصدَ لا مُفرّطين ولا مُفْرِطين فاخذوا انفسهم بالحزم في كل ذلك فجمعوا بين الدين والدنيا .

ولقد توفرت امام اعينهم المناظر الحسنة والمرائي البديعة مما لم يكن لهم به عهد من قبل فاتسع مجال الشعر عندهم بما كانت تثيره مناظر الجمال في نفوس شعرائهم . وكانوا يعنون بغرس الزهور وتربيتها وكانوا يجلبون الرياحين الى حدائقهم من بلاد الهند وغيرها حتى قيل انه كان في بغداد للامراء من البساتين ما يقوم ثمن الواحد منها باكثر من عشرة آلاف دينار !

وانا لو انصفناهم لقلنا انهم كانوا ينشئون متنزهات عامة تلجأ اليها اولادهم وترتع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيها صبيانهم بعد الفراغ من الكد والدرس وفي بعض هذه المتنزهات يقول شاعرهم وقد صبا اليها وعطفته الذكرى عليها :

سقى الله باب الكرخ من متنزه الى قصر وضاح فبركة زلزل

هذا هو شأن الترف عند عظماء الدولة وخواص الأمة ثم يأخذ في النقصان عند من هم دونهم في الجاه الى ان يبقى منه نصيب للعامة الذين راجت بينهم الصناعات وتوسعوا في التماس الحاجات لضرورة العمران .

من ذلك نرى ان مرافق الحياة عندهم اتسعت وان مقاصدها تعددت ، وان الوانهـا تبدلت واشكالها تغيرت فكان لذلك كله تأثير بين في اللغة وآدابها فصيغت صبغة جديدة و برزت تختال في ثوب قشيب من الجدّة وحسن الرونق وزاد ذلك الاثر حسناً اسباب أخرى منها :

حدة اللغة واسبابها في العصر العباسي

اولاً — امتزاج العرب بالفرس واختلاطهم بغير العناصر العربية اختلاطاً شديداً اثر في احوالهم الاجتماعية وامورهم الحيوية من الاخلاق والعادات والافكار والخيال وسائر الشؤون مع تمكن الفرس من الدولة وانبساط ايديهم في امور الخلافة ونفوذ كلمتهم في شؤونها فكان ذلك عاملاً على انتفاع اللغة العربية باهل هذا اللسان فكراً وخيالاً وحسناً وفراهة ودخل في اللغة العربية ما وسعته من اساليب تلك اللغات التي لاتنبو عن الذوق العربي كثيراً .

ثانياً — رقي احوال الامة الاجتماعية ولا يعزب عن البال ان الاحوال الاجتماعية للامم هي الاساس الذي تشاد فوقه لغاتها فان كانت الحال الاجتماعية في أمة راقية جامعة لاسباب الحضارة قائمة بحاجات الحياة من انتشار دين وعلم واستتباب طمأنينة وامن ، وسهولة مرافق حياة ، وموارد رزق ، وحسن نظام ، وما يتبع ذلك من ترتيب الحكومات وتدبير الزراعات ووفرة الصناعات ونماء الثروة وتمكن مكارم الاخلاق — اذا تم كل ذلك في الامة رقيت لغتها وشرف لسانها وعذبت معانيها وغزرت مادتها وتشعبت الفنون ونبغ فيها الفحول من امراء الكلام نثراً ونظماً والضليعون في سائر فنون العلم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

معقولة ومنقولة ، كذلك كانت الدولة العباسية اذ العهد قريب بالنبوة وصدر الخلافة والدين غض الشباب والقرآن محفوظ في الصدور مفهوم في العقول معمول بحكمه واحكامه وهو المرجع في امور الدين والدنيا فكانت قوانينهم شرعية ومدنية وجنائية متفرعة منه مسترشدة بالاحاديث النبوية وكانت العقول حرة والافهام مطلقة وباب الاجتهاد مفتوحاً والعلم شعار الملوك ومطمح انظار السادة والعظماء فالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون وهم صدور خلفاء الدولة علماء محققون وأئمة مجتهدون من طبقة الامام ابي حنيفة ومالك واضرابهما واذا كان هذا شأن الخلفاء والعظماء والخاصة في الدين والعلم واللغة والادب فما ظنك بمن دونهم من الرعية ؟ لاريب انهم كانوا على دين ملوكهم . وارادة الملك شريعة المملكة ولا يزهو العلم ويثمر الادب الا في ظل امير يتعاهده ويشد ازراهله ، فالدولة التي يكون ملوكها وامراؤها كذلك يجدر بها ان تزهو بالعلم والعلماء وتتيه عجباً بالادب والادباء ولهذا وجد يومئذ كثير من الاخصائيين في كل فن جميل .

ثالثاً — الاستعداد الفطري العظيم لهذه الامة المجيدة وقد زادته تلك الحضارة واظهرته في تمامه وساعد على ذلك سعة اللغة وقبولها لكل جديد لكثرة عوامل النماء فيها ولتنوع اشتقاقها وتفرع اصولها وكثرة طرق التعبير عن المقصود فيها ولهذا سهل على الناطقين بها الافتنان في ضروب المنطق من منثور ومنظوم — حتى ان الكاتب ليستطيع ان يملأ صفحات عدة في معنى واحد محصور — وتحليتها بالمحسنات البديعة والحلى اللفظية والمعنوية وتصرفوا في ذلك تصرفاً يشهد للغة برحب الصدر ولاهلها بحسن الذوق .

رابعاً — تدوين الفنون واشتغالهم بالتأليف وترجمة الكتب الاجنبية الى اللغة العربية والاطلاع على آثار الاقدمين من فلاسفة اليونان وغيرهم فكانت اثراً صالحاً اقتبسوا منه افكاراً حكيمة عجيبة وآراء سديدة غريبة ومعاني رقيقة بديعة صيغت لها مبان رقيقة لطيفة ، استخدموا كل ذلك في كلامهم واودعوه عباراتهم وافتنوا في هذه المعاني المكتسبة افناناً غريباً ، وتلاعبوا بها ما شاء لهم الخيال وقوة القريحة فاتسع بذلك نطاق الفكر ونمت دارة المعارف وعظمت قوة الخيال والابتداع .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

آثار الحضارة العباسية في اللغة

ولقد كان تأثير هذه الحضارة — التي سبق ذكرها — بيناً في اللغة ، فتناول : اغراضها ومعانيها والفاظها واساليبها نثرها ونظمها .

اما اغراض اللغة فلم تكن تتناول قبل ذلك سوى مايتعلق «بالدين ومعيشة الجد القليلة الترف » وماله ارتباط بالحيـاة ذات الغضاضة والبداوة لاستقلالها بالآداب العربية وما يدعو اليها و يتعلق منها بسبب ، فلما قامت الدولة العباسية ووجدت تلك الحضارة الحديثة وتشبه الخلفاء والامراء والولاة والرؤساء بملوك الفرس وعظمائهم في اكثر امور السياسة والمعيشة وحاكتهم العامة في ذلك بمحاكاة امثالهم من الاعاجم وامتزجت المدنية السامية العربية بالمدنية الآرية الفارسية تمام الامتزاج تناولت اللغة اغراضاً كثيرة لم تعهد فيها من قبل بنقل علوم الامم المغلوبة وآدابها وعاداتها وطرق معيشتها وبتدوين العلوم الشرعية واللسانية والعقلية و بالترجمة من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية وبتأدية المقاصد الحضرية التي استدعاها الانغماس في الترف وتطلبتها الحضارة واستوجبتها الاحوال الاجتماعية فنمت اغراض اللغة وفسحت دائرتها واصبحت تتناول كل موضوع فما اعوز اهلها القولُ في اي غرض ولا عز عليهم التعبير عن اي معنى فاصبحت لذلك لغة ملك وسياسة وعلم ودين وادب وحضارة واجتماع .

واما المعاني والافكار فقد كان لهذه الحضارة تأثير قوي ونتيجة ظاهرة في الحركة الفكرية للامة العربية والناطقين بلغتها ولاغرو فان الانقلابات الاجتماعية والثورات الفكرية تتناول من الامم رؤوسها ومن الشعوب عقولها .

ولقد ظهر ذلك في نثرهم ونظمهم بصور شتى فشاعت المعاني الدقيقة والتصورات الجميلة والاخيلة البديعة وكثر ذلك عما كان عليه من قبل ولاسيما بعد ترجمة الكتب الاجنبية ودراسة العرب علوم الحكمة والفلسفة وتغذية عقولهم بمعانيها .

اما الالفاظ فقد نمت بما تجدد فيها من وضع كلمات عربية جديدة بطريق المجاز او الاشتقاق والقياس لاصطلاحات العلوم والفنون والصناعات وبعض المسميات الحديثة ثم بما اقتبسه العرب من الالفاظ الاعجمية وخصوصاً من اللغة الفارسية لحاجتهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اليها ولاسيما في الاسماء الآتية والوان الاطعمة وانواعها ونحو ذلك مما لم يكن لدى العرب فاستعاضوا عنه بالفاظ اهله بعد ان عربوها وصقلوها وجعلوها ملائمة للذوق العربي غير نابية عنه غير جامدين في ذلك ولا محجمين عن امداد لغتهم بما يزيدها ثروة ولكنهم اقتصروا فيه واقتصدوا منه على مادعت اليه الضرورة حتى اضطروا ان يضعوا لها بعدئذ معاجم خاصة بها تضبطها وتبين مأخذها واصلها حتى لا تلتبس بالعربية الاصلية ٠

دخول بعض الاساليب المكتسبة وكثرة المترادف

ولما كانت الحضارة تأبى الا النعيم والترف ولا ترضى الا بالحسن الجميل في كل شيء عُنيت العرب في هذا العصر بانتقاء الالفاظ الرشيقة السهلة وايثار الكلمات العذبة الممثلة للمعنى تمام التمثيل وهجر الالفاظ الغريبة الحوشية واما الاساليب فقد تنوعت واقتبست العربية لها بعض اساليب الامم الاخرى مع الحرص على الذوق العربي وافتنُّوا في اساليب الكلام وتصرفوا في طرقه ثم توسعوا في التشبيه واوغلوا في المجاز والكناية الدقيقة وحلوا القول بما راق لهم من محسنات وربما صوروا المعنى الواحد بعبارات طويلة وجمل مترادفة تأكيداً له وافتناناً فيه واظهاراً لسعة اللغة وثروتها ٠

ذلك شيء من الآثار الحسنة التي خلعت تلك الحضارة على اللغة حللها فبرزت في اجمل حلية وابهى زينة ٠ وانا نقدمها لنرى ان العباسيين لم ينسوا لغتهم في اوج حضارتهم ولم يهملوا الاخذ بيدها فرفعوها المرتبة التي وصلوا اليها وبذلك ضربوا احسن الامثال ٠

منشأ العامية واسباب انتشارها ووسائل حدها

ولكن هناك اثراً غير حميد كان نتيجة لازمة لهذه الحضارة واثراً لابد منه بعد هذا الاختلاط فما كادت الامة العربية تمتزج بغيرها من الامم حتى فشا الفسادُ في لغة ابناء جاليتها والناشئين في غير باديتها لنقص ملكة البلاغة فيهم واضطراب ترتيبها بمزاحمة ملكات اللغات الاعجمية لها ٠ فكثر التحريف واللحن وسرت عدواه الى البادية بعد ان كان مقصوراً على الحاضرة وبقي داء العجمة يستعمل بين العامة والصناع ونظرائهم ممن لا يترفعون عن معاناة العُجمة من وضعاء العرب على الرغم من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

محاربة الأئمة وأولي الامر لهذا الوباء بتدوين علوم اللسان وتقبيح العامية ومقت المتكلمين بها حتى نشأ في كل اقليم لغة عامية خاصة به مؤلفة من العربية المحرفة ممزوجة بشيء من الفاظ لغة الاقليم الوطنية ٠

ولقد راع الخلفاء والخاصة ذلك الخطب في صدر الدولة فحاربوه بكثير من الوسائل وقاوموه بحث العلماء على تدوين اللغة وبذل تمام العناية بضبط الفاظها ونشر علومها وكافؤوهم ببذر الاموال وأسالوا عليهم الذهب النضار وحشدوا في قصورهم ائمة اللسان وفحول اللغة والبلاغة يؤدبون ابناءهم وخاصتهم ويقومون من زيغ السنتهم فكانوا امراء الكلام وقائدي زمام الفصاحة كما كانوا امراء الملك وسادة الدولة ولكن ذلك كله لم يقف تيار العامية الزاخر ولم يحل دون سيلها الجارف ؛ وما زال الخطب يستفحل ويعز دواؤه ويستعصي علاجه حتى انتاب اللغة ما انتابها ولم يكد يقبل النصف الثاني لهذه الدولة حتى كانت العامية لغة التخاطب بين الخاصة والعامة وابتعدت لغة الكتابة عن لغة المحادثة ولم تزل مسافة الخلف تتسع بينهما حتى صار لكل بلاد تنطق بلغة العرب لغة تخاطب عامية خاصة يتفاهمون بها ، بل انه في منتصف القرن الرابع حين تغلب بنو بويه اخذ سلطان العرب في الشرق يتراجع وهبت اللغات الاخرى تسترد حياتها وتطارد العربية من بلادها وهذا هو المتنبي من شعراء القرن الرابع يقول وقد زار بلاد فارس يصف شعب بوان [1]

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان [2]

ولم تزل اللغة العربية تدافع سيل الفارسية ثم التركية الجارف في الشرق حافظة لنفسها منزلة اللغة الرسمية (للدين والخلافة) حتى سقطت بغداد في يد التتار فغلبت اللغة على امرها وخضعت لقانون الطبيعة القاهر فكان ذلك آخر العهد بغلبة سلطانها

(١) وادي من اودية فارس الجميله ٠ (٢) اي ان العربي الذي كان صاحب الجاه فيها اصبح غريب الوجه اي الملبس واليد بعني ليس له نفوذ ولا سلطان واللسان اي لالغة له في هذا البلد ٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على المشرق ولكنها خلفت فيه ديناً وشرائع وعلوماً وآداباً لاتنسخها يد الايام ولا تنال منها ظروف الحوادث حتى يرث الله الارض ومن عليها وقد كفل القرآن الشريف حياة هذه اللغة (وانا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)

ازدادت العامية ازدياداً عظيماً حتى اصبحت ملكة العربية في هذا العصر وما وَلِيَه تستفاد من التعلم (كما هي الآن) وصارت تؤخذ من بطون الكتب والسنة القواعد الصامتة بعد ان كانت تتلقى من افواه العرب والسنة فحول البلاغة الناطقة ومن ذلك العهد لم يستجز العلماء الاستشهاد بكلام اهل هذا العصر وما بعده على اللغة افرادية او تركيبية ٠

هكذا تغيرت الحال وعبث باللغة غير اهلها٠

فلا الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت اعرف

والآن وقد انتهى بنا البحث الى هذا الحد نرجو الله سبحانه ان يوفقنا الى الاخذ بيد لغتنا لنواصل طريق الاصلاح الذي سار فيه العباسيون ٠

شبرا — مصر : محمود المنجوري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net